نصوص للتطبيق في مقياس نص أدبي قديم (نثر)

أدب التصوّف.

يضع النقادُ والسّاسةُ عادة للفن حدودا ضيّقة، حين يطلبون منه أن يُعبّر فقط عمَّا يتماشى وتصوّراتهم الدّينية والعقائدية والفكرية ،وكذا النمط السائد في عصرهم، وهو ما نجده في التراث العربي من حيث موقفه من النثر الصوفي ، فإذا كان النثر العربي لم يلق الرّواج الذي كان للشّعر، فإنّ الأمر هو أصعب فيما يتعلّق بالنثر الصوفي، بالنظر إلى المعاني العميقة التي حاول المتصوفة ترجمتها بلغة فيها الكثير من الغموض والسرّية والإغلاق ، فالأساليب كانت معقّدة ،والأفكار بعيدة ،والمصطلحات المتداولة بيهم خاصة ،ناهيك عن الأشواق والخوارق والكرامات والأحوال القلبية والمقامات الروحية التي تعجز اللغة العادية عن مسايرتها ،لذا كانت التجربة الصوفية ثورة مضامين وأشكال في الوقت نفسه ،فقد تجاوز هؤلاء اللّغة المعهودة ،بابتكارهم لوسائل تعبيرية لم تكن موجودة في زمانهم ،حيث كثُر الحديثُ حول الخيالات البعيدة والشطح والرمز و التهويمات اللامعقولة ، والأساليب الفريدة والاستعارات الخاصة، ونحن في هذا المقام نورد نصا صوفيا لابن عربي من كتاب:الإسرا إلى مقام الأسرى. مقدمة الدكتورة سعاد الحكيم. وذلك للاطلا ع على طبيعة الخطاب الصوفي وخصائصه المضمونية والشكلية.

يقولُ ابن عربي:

قال السَّالكُ: "فكانَ بعضُ ما قيل لي في ذلكَ التشريفِ والتنزيهِ، والتعريفِ والتنبيه، أنْ قال: عَبْدي أنتَ حَمْدي، وحاملُ أمانتي وعَهدي. أنتَ طُولي وعرضي، وخليفتي في أرضي، والقائمُ بِقِسْطَاسِ حَقّي، والمبعوثُ إلى جميعِ خلقي. عالَمُك الأدنى بالعُدْوَةِ الدنيا. والعدوة القصوى.

أنتَ مِرآتي، ومَجْلَى صِفاتي، ومُفصِّل أسْمائي، وفاطرُ سَمَائي.

أنت موضعُ نظري من خلقي، ومجتمعُ جمْعِي وفَرْقي.

أنت ردائي، وأنت أرضي وسمائي، وأنت عرشي وكبريائي.

أنت الدُرَّةُ البيضاء، ، والزَّبَرْجَدَةُ الخضراءُ، بك تَرَدَّيت، وعليك استويْت، وإليكَ أتيت، وبكَ إلى خلقي تَجَلَّيت. فسبحانك ما أعظم سلطانك، سُلطانك سُلطاني فكيف لا يكونُ عظيماً، ويدك يدي فكيف لا يكونُ عطاؤك جسيماً.

لا مِثْل لك يُوازيك، ولا عديلَ يُجاريك. أنتَ سِرُّ الماء، وسرُّ نجومِ السماء، وحياةُ روح الحياة، وباعث الأموات.

أنتَ جنّةُ العارفين، وغايةُ السالكين، وريحانُ المُقرَّبين، وسلامُ أصحاب اليمين، ومُرادُ الطالبين، وأنسُ المعتزلين المنفردين المنقطِعين، وراحةُ المشتاقين، وأمنُ الخائفين، وخَشْيَةُ العالمين، وميراثُ الوارثين، وقُرَّةُ عينِ المُحبيّن، وتحفةُ الواصلين، وعصمة اللائذين، ونزهة الناظرين، وريّا المستنشقين، وحمْدُ الحامدين.

أنت دُرَرُ الأصداف، وبحرُ الأوصاف، وصاحبُ الاتصاف، ومَحَلُّ الإنصاف، ومَوْقِفُ الوُصَّاف، ومُشّرِّفُ الأشراف، وسِرُّ الأنعام والأعراف.

طوبى لسرٍّ وصل إليك، وخَر‍َّ ساجداً بين يَدَيْك، لـه عندي، ما خبّأتُهُ وراء حدّي، وقد ناجيتك به في مَشْهَدِ المَطْلَع، عِندَ ارتقائِكَ عن المحَلِّ الأرفع.

عبدي أنتَ سرّي، وموضعُ أمري، هذا موقفُ تعريفك، بِعُلُوِّكَ على كلِّ الموجودات وتشريفك

أنت روضة الأزهار، وأزهارُ الروضات، ومَغْرِبُ الأسرار، وأسرارُ المغرِب، و مشرقُ الأنوار، وأنوارُ المشرق.

لَوْلاَكَ ما ظهرتِ المقاماتُ والمشاهِد، ولا وُجِدَ المشهودُ ولا الشاهد، ولا حُمِدَت المعالمُ والمحامِد، ولا مُيِّزَ بين مُلْكٍ ولا مَلَكُوت، ولا تَدَرَّعَ لاهوتُ بناسوتٍ. بك ظهرتِ الموجوداتُ وتَرَتَّبَت، وبك تَزَخْرَفَتْ أرضُها وتَزَيَّنَت.

عبدي لولاك ما كان سلوكٌ ولا سفرٌ، ولا عينٌ ولا أثر؛ ولا وصولٌ ولا انصراف، ولا كشفُ ولا إشراف؛ ولا مكانُ ولا تمكين، ولا حالُ ولا تلوين؛ ولا ذوقٌ ولا شربٌ، ولا قِشرٌ ولا لُبّ، ولا عبدٌ ولا ربّ، ولا ذهاب ولا نفس؛ ولا هيبةُ ولا أنس، ولا نَفَسٌ ولا قبسٌ، ولا فَرَسُ ولا جَرَس؛ ولا جنَاحٌ ولا رَفْرَف، ولا رِياحٌ ولا موقف؛ ولا معراجٌ ولا انزعاج، ولا تَجَلِّي ولا تَخَلّى؛ ولا جُودٌ ولا وجود، ولا حمد ولا محمود؛ ولا تداني ولا تَرَقِّي، ولا تَدّلِّي ولا تَلَقّي؛ ولا هَيِّنٌ ولا لَيِّن، ولا غَيْنٌ ولا رَيْن، ولا كَيفٌ ولا أين، ولا فَتْقٌ ولا رَتْق ـ ولا خَتْمٌ ولا خِتام، ولا وَحْيٌ ولا كلام، ولا وَميضٌ ولا بَرْق، ولا صدق ولا يقين، ولا ظهر لصفات عين، ولا تحقَّقَّ وصلٌ ولا بَيْن؛ ولا كان عرش، ولا مُهِّدَ فرش؛ ولا رُفِعَ غمام، ولا أحرق اصطلام؛ ولا كان فناء ولا بقاء؛ ولا قَبْضٌ ولا عطاء: إلى غير ذلك من الأسرار، ولا أشرقت الأنوار على الأسوار، ولا جرت بحار الخلق على الأطوار؛

لولاكَ ما عُبدْتُ، ولا وُجِدْتُ ولا عُلِمْت، ولا دَعَوْتُ ولا أُجِبت، ولا دُعِيْتُ ولا أَجَبْت، ولا شُكِرْتُ ولا كُفِرْت، ولا بَطْنتُ ولا ظَهَرت، ولا قَدَّمْتُ ولا أَخَّرت، ولا نَهْيتُ ولا أَمَرْت، ولا أَعلنْتُ ولا أسْرَرْت، ولا أَخْبَرْتُ ولا أوضحت، ولا أشرت.

أنت قطبُ الفلك، ومُعَلَّمُ الملك؛ رهينُ المحبس، وسلطانُ المقامِ الأقدس.

أنتَ كيميائي، وأنتَ سيميائي، أنت إكسيرُ القلوب، وحياضُ رياضِ الغُيُوب، بك تنقلبُ الأعيان، أيها الإنسان.

أنتَ الذي أردت، وأنتَ الذي اعتَقَدْت: ربُّك مِنْكَ إلَيْك ومعبودُك بينَ عَيْنَيْك، ومَعَارِفُكَ مردودةٌ عليك، ما عرفت سواك، ولا ناجَيْتَ إلا إيّاك). من كتاب: سعاد الحكيم :الإسرا إلى المقام الأسرى ،ط ، دندرة للطباعة والنشر،بيروت،لبنان،ص162-166.

أسئلة حول النص:

س1- تدور هذه المناجاة بين طرفين يبدو أن طرفي الزمان والمكان قد تقلّصا بينهما إلى حدّ كبير ،لدرجة أنّ المخاطَب فقد صفاتة العادية وتقمّص صفات أخرى.

في ضوء حادثة الإسراء والمعراج للنبيّ محمد (ص)، حدّد مقام المتحدّث في النص ونوع الخطاب الموجّه إليه.

س2- يعكس النص مكانة الإنسان في الكون وعند الخالق ،تحدث بإيجاز عن هذه المكانة وعلّق عليها.

س3- في هذا النص تبدو علاقة الخالق بالمخلوق بمنظور- الغزل الصوفي- مختلفة ،حلّل ذلك بالاعتماد على النص.

س4- حاول تتبع بعض الخصائص الأسلوبية الواردة في النص مع التمثيل.